خـــــاتمـــة

خاتـــمة

يوجـــد اتجـــاه واضح فى مجال الدرس النقدى الآن ، وهو العودة إلى الاهتمام بنظرية الأدب ومحاولة الإجابة عن أسئلة أولية طالما سئلت فى الماضى مثل ما الأدب ؟ ، وما النقد ؟ ومـــا وظـــيفة الأدب ؟ وما وظيفة النقد ؟ وما حدود النقد ؟ وهذا السؤال الأخير يستثير حفيظة الـــبعض فـــيجعله يدعـــوا إلى نقد بلا حدود ، ولا تكتفى نظرية الأدب بالوقوف عند هذا الحد ،ولكـــنها تـــتجاوزه إلى البحث فى أمور نظرية أخرى واسعة كالمدارس الأدبية وعلاقة النص بالمؤلف ، والأنواع الأدبية ، وما إلى ذلك [١]

إن مهمـــة تشييد نظرية نقدية لابد أن تستمد أفكارها من نقد الأعمال الأدبية نفسها ، ولا تفـــرض علـــيها فرضـــاً ، لأن العمل الأدبي غنى بالقيم والأفكار التى تصلح لبناء نظرية نقدية ،وذلك بعد قراءة هذه الأعمال قراءة متأنية .

إن القرن الحالى يستحق أن يطلق عليه عصر النقد إذ لم تزد فيه الكتابات النقدية فحسب ، بـــل وصـــل فيه النقد إلى درجة من الوعى بالتراث ، ومكانة أعظم فى المجتمع ، وجاء فى العقود الأخيرة بمناهج جديدة ، وأحكام جديدة ، كما توسعت رقعته الجغرافية .

العمـــل الأدبي أمة وحده ، وعالم قائم بذاته ، لا يمكن أن يشده أو يسحبه شيء أخر إليه ،فله طبيعته المستقلة عن الأشياء بحيث لا يمكن للأديب أن ينقل الواقع برمته ، وإلا كان العمل انعكاساً فقيراً للواقع والأشياء ، أو صورة مطابقة لها أو مماثلة ، فالأديب الواقعى لا يمكنه نقل الواقـــع ، وإنمـــا ينقل صورة مرسومة من هذا الواقع وبناءً على ذلك فإن أقصى ما يمكن أن يصـــل إلـــيه أديب " تتوافر لديه النية فى نقل الواقع أن يخلع مشاعره الخاصة على هذا الواقع ليتحول الواقع إلى عالم آخر تتحكم فيه أهواء ، وميول ورغبات ، وأمال لهذا الأديب ، بالإضافة إلى الأثر البالغ لتقاليد النوع الأدبي " [٢]

إن قـــراءة الشـــعر من داخله تقضى على كثير من المسلمات التى أصبحت تؤخذ مأخذ البديهيات ، فالنقاد فى ظل أدبية الأدب يؤمنون بأن الشعر وجد أولاً ثم وجد النقد ، وليس العكس ، وبالتالى لا يمكن أن ينقذ النقد الأدب من الانهيار .

يقول د . عياد " لا تنتظر من أى كتاب نقدى أن ينقذ أدباً من الانهيار " [٣]

---

(١) راجع د . محمود الربيعى .مداخل نقدية معاصرة لدراسة النص الأدبي مجلة عالم الفكر مجـ ٢٣ عددان ١ ، ٢ سنة ١٩٩٤ م ، ص ٩٨ .
(٢) د . السيد فضل . النص والواقع دعوة إلى أدبية الأدب ضمن كتاب النقد الأدبي فى منعطف القرن ط ١ سنة ١٩٩٧ ص ٢٦٥ .
(٣) كتاب أرسطو طاليس فى الشعر نقل أبى بشير متى بن يونس من السريانى إلى العربى حققه د . شكرى عياد ط ١ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٣ ص ٢٨٠ .

ويقول أيضاً " إن أزهى عصور الشعر العربى قد انطوت قبل أن يسير النقد العربى فى طـريق النضـج والاكـتمال . فأول ما نعرفه من الكتب المنظمة فى نقد الشعر كتاب طبقات الشـعراء لابـن سلام قد ألف بعد أن مضى العصران الجاهلى والأموي ، وانقضت حقبة غير يسـيرة الخطـر من العصر العباسى ، زد على ذلك أن هذا النقد الذي نشأت الرواية ظل مولياً وجهه شطر القديم ولم يلتفت إلى الشعراء المحدثين إلا ليقول لهم : عليكم باتباع القدماء ، فكان لهذيـن العاملين مجتمعين أثر ظاهر فى توهين الصلة بين جانبى البلاغة : التحقيقى والنظرى ، أو الإنشـائي والوصـفى ذلـك بفضل جهود الشعراء وحدهم ، ولم يكن للنقد نصيب من هذا الـتطور ، حتى إذ بده أبو تمام معاصريه بمذهب جديد فى الشعر ، لعله كان يصور أقصى ما يمكـن أن يصـل إلـيه من تطور فى حدود عمود الشعر القديم ، وجدنا النقد – وأعنى الكتب المـنظمة فى النقد التى تتناول طريقة الشاعر فى شعره كله وتميز الجيد والرديء فى جميع ما قاله ، ولا أعنى الملاحظات النقدية التى تقال عفو الساعة ، ولا تتصل إلا بمثال واحد – وجدنا الـنقد يقف أمام هذا المذهب زمناً غير قليل ، ثم يخرج لنا ثلاثة كتب تفسره وتنقده ، بديع ابن المعتز ثم موازنة الآمدى ثم وساطة الجرجانى " (١)

إن الأدب قـد خرج قوياً فى معركة التقدم العلمى وذلك باحتفاظه بطبيعته المستقلة عن الأشياء يقول د . السيد فضل " إن احتفاظ الأدب بطبيعته الخاصة برغم أعاصير طالبى الحقيقة يعنى أن العوالم الأخرى فيه تستحق ما دفع فيها من ثمن ، وأعنى عزل الأدب عن الواقع ،وقد خـرج الأدب قويـاً فى معركة التقدم العلمى ، وكان الظن أن يزحزحه العلم عن مكانه الرفيع ،ونحسب أن الأدب المستقل عن الأشياء قادر على تجاوز مأزق النص والواقع ، وربما لا يكون فى مثل هذه الحال حاجة إلى المقولة الأرسطية ، الشعر أوفر حظاً من الفلسفة وأسمى مقاماً من الـتاريخ لأنـه لا يدعى ما تدعيه الفلسفة أو ما يدعيه التاريخ ، وحسبه فضلاً عما تقدم كله أن تكون الصورة فيه أفضل من الشيء نفسه وحسبه أن يطرح علينا أسئلة لسنا مضطرين للإجابة عنها ولا هو مضطر لتقديم هذه الإجابة " (٢)

---

(١) السابق ص ٢٧١ .
(٢) د . السيد فضل . الواقع والنص دعوة إلى أدبية الأدب ص ٢٠٦ سابق .

البلاغة العربية لم يحسن استغلالها وتطويرها وإثمارها من أجل أدبية الأدب حيث اتخذ البلاغيون من مفهومها " مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته " ذرعية للبعد عن فنية النص ، وبالتالى رفض الكثير من الشعر الذي لم يراع فيه الشاعر مقتضى الحال خاصة الحكام ، وبالتالى فإن الشاعر لابد أن يقصر كلامه على قدر حاجة المخاطب .

وأدى هذا بدوره إلى ظهور التكسب بالشعر بمحاولة إرضاء المخاطب – مراعاة مقتضى الحال – والتزام حدود اللياقة معه وأدى أيضاً – وهذا هو الخطر عينه – إلى الابتعاد عن فنية النص بالتماس وتصيد الشواهد لإثبات مدى موافقة أو خروج الشاعر على مفهوم البلاغة العربية ، لذا ليس غريباً أن نجد الجهد البلاغى مقتصراً على البيت والبيتين ولم يمتد ليشمل نصاً كاملاً ، ونلاحظ كذلك أثر التقسيم المنطقى الذي يبدو فى وضع الحدود والتعريفات والتقاسيم ، والتماس الشواهد لها مما أدى بدوره إلى وضع شروط لفصاحة الكلمة المفردة والتركيب (الجملة) وبالتالى كان دور البلاغى البحث فى فصاحة مفردات ، وتراكيب توافق النموذج أو تخالفه ولم يتوقفوا أمام نصوص ، فيكفى أن تقف أمام أحد مباحث البلاغة العربية القديمة من مثل المجاز بنوعيه أو الكناية لتجد البلاغيين وقفوا أمام رصد أنواع المجاز ورصد الشواهد لها سواء من القرآن الكريم أم من الشعر العربى دون وقوف حقيقى أمام فنية هذه الشواهد .

والأمر لا يختلف مع الكناية فلم يبحثوا فى فنية الأسلوب الكنائي وإنما كان دورهم فى التماس الشواهد دون بحثها ورصدها دون إظهار جمال بلاغتها وهكذا .

وكان لهذا أثره فى نزع وفصل الأبيات الشعرية عن سياقها والحديث عنها مفردة دون داع ودون تقدم يذكر على النقد الأدبي أو البلاغة العربية .

فالبلاغة العربية – إذن – تحتاج إلى مزيد من الجهد لكشف دورها ومحاولة إعادة قراءتها على أساس دراسة التقسيمات المنطقية دراسة فنية تكشف عن قيمتها ، وكذلك النقد العربي .

الإنسان عدو ما جهل هذه حقيقة لا شك فيها وقد أدرك ذلك عبد القاهر الجرجانى منذ القديم ، ولذا ليس غريباً أن تجد لديه حديثاً طويلاً يبين فيه أن الإنسان يقدم ما يحسن على ما لا يحسن ، ويحاول الرزاية على الذي لم يحظ به ، والطعن على أهله ، والغض منهم كل ذلك بسبب الجهل وأضراره .

البلاغة العربية لم يحسن استغلالها وتطويرها وإثمارها من أجل أدبية الأدب حيث اتخذ البلاغيون من مفهومها " مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته " ذرعية للبعد عن فنية النص ، وبالتالى رفض الكثير من الشعر الذي لم يراع فيه الشاعر مقتضى الحال خاصة الحكام ، وبالتالى فإن الشاعر لابد أن يقصر كلامه على قدر حاجة المخاطب .

وأدى هذا بدوره إلى ظهور التكسب بالشعر بمحاولة إرضاء المخاطب – مراعاة مقتضى الحال – والتزام حدود اللياقة معه وأدى أيضاً – وهذا هو الخطر عينه – إلى الابتعاد عن فنية النص بالتماس وتصيد الشواهد لإثبات مدى موافقة أو خروج الشاعر على مفهوم البلاغة العربية ، لذا ليس غريباً أن نجد الجهد البلاغى مقتصراً على البيت والبيتين ولم يمتد ليشمل نصاً كاملاً ، ونلاحظ كذلك أثر التقسيم المنطقى الذي يبدو فى وضع الحدود والتعريفات والتقاسيم ، والتماس الشواهد لها مما أدى بدوره إلى وضع شروط لفصاحة الكلمة المفردة والتركيب (الجملة) وبالتالى كان دور البلاغى البحث فى فصاحة مفردات ، وتراكيب توافق النموذج أو تخالفه ولم يتوقفوا أمام نصوص ، فيكفى أن تقف أمام أحد مباحث البلاغة العربية القديمة من مثل المجاز بنوعيه أو الكناية لتجد البلاغيين وقفوا أمام رصد أنواع المجاز ورصد الشواهد لها سواء من القرآن الكريم أم من الشعر العربى دون وقوف حقيقى أمام فنية هذه الشواهد .

والأمر لا يختلف مع الكناية فلم يبحثوا فى فنية الأسلوب الكنائي وإنما كان دورهم فى التماس الشواهد دون بحثها ورصدها دون إظهار جمال بلاغتها وهكذا .

وكان لهذا أثره فى نزع وفصل الأبيات الشعرية عن سياقها والحديث عنها مفردة دون داع ودون تقدم يذكر على النقد الأدبي أو البلاغة العربية .

فالبلاغة العربية – إذن – تحتاج إلى مزيد من الجهد لكشف دورها ومحاولة إعادة قراءتها على أساس دراسة التقسيمات المنطقية دراسة فنية تكشف عن قيمتها ، وكذلك النقد العربي .

الإنسان عدو ما جهل هذه حقيقة لا شك فيها وقد أدرك ذلك عبد القاهر الجرجانى منذ القديم ، ولذا ليس غريباً أن تجد لديه حديثاً طويلاً يبين فيه أن الإنسان يقدم ما يحسن على ما لا يحسن ، ويحاول الرزاية على الذي لم يحظ به ، والطعن على أهله ، والغض منهم كل ذلك بسبب الجهل وأضراره .

يقــول عبد القاهر " فهذا فضل العلم لا تجد عاقلاً يخالفك فيه ، ولا ترى أحداً يدفعه أو ينفــيه ، فأما المفاضلة بين بعضه وبعض ، وتقديم فن منه على فن ، فإنك ترى الناس فيه على أراء مختلفة ، وأهواء متعادية ، ترى كلاً منهم لحبه نفسه وإيثاره أن يدفع النقص عنها يقدم ما يحسن من أنواع العلم على ما لا يحسن ، ويحاول الرزاية على الذي لم يحظ به ، والطعن على أهلــه ، والغصن منهم ، ثم تتفاوت أحوالهم فى ذلك ، فمن مغمور قد استهلكه هواه ، وبعد فى الجور مداه ، ومن مترجح فيه بين الإنصاف والظلم ، يجور تارة ويعدل أخرى فى الحكم ، فأما من يخلص فى هذا المعنى من الحيف حتى لا يقضى إلا بالعدل ، وحتى يصدر فى كل أمره عن العقل كالشيء الممتنع وجوده " (١)

إذاً لابــد من العلم والثقافة والخبرة والدراية والقراءة كى يكون الإنسان صديقاً لما يقرأ ،وكــى تكون قراءته قراءة منتجة لأفراد جدد بدلاً من أن تكون قراءة عقيم لا فائدة ترتجى منها ولا ثمرة من ورائها .

يجــب التوجه إلى النص الأدبي مباشرة والاستماع إلى صوته هو بدلاً من الاستماع إلى أصوات النقاد فيه ، فقد يصرفنا سماع أصوات النقاد عن رؤية النص على حقيقته .

إذا كانــت الحداثة كالطوفان فإنها لابد أن تواجه بطوفان نقدى يوازى الإبداع الشعرى ولا يفــرض علــيه . ولابد من تأصيل منهج للدراسة الأدبية يستمد من التراث معينة الذي لا ينضب وفى الوقت نفسه تكون عينه على المعاصر .

علــى الناقد أن يغوص داخل نسيج النص الشعرى ليرصد جديلته اللغوية وسبيكته التى نسج منها وكيف قام الشاعر بتشكيلها جمالياً وذلك بالقراءة المتعمقة التى تكشف عن قيمة الشعر ومعناه .

النصوص الأدبية خالقة لأدواتها ، لذا فلا حاجة إلى فرصة قواعد مسبقة عليها .

إذا قمــناه بتوحيد الجهود النقدية فمن الممكن أن نخرج بنظرية نقدية قادرة على مواجهة القــوى المهيمــنة والمسيطرة ، بحيث لن يكون بقاء إلا بالتعاون فى المجال الثقافى بدلاً من أن تظل الجهود النقدية أصواتاً منفردة أو وجهاً غائباً أو ....

إن قــراءة الشعر عمل فيه شيء من الخلق والإبداع لأنها فيها هضم لما تقرأ ، فإنك لن تقــرأ شعراً إذا لم تتمثل ما فيه من مشاعر وتجارب ، فالقصيدة تجربة مارسها الشاعر ، وهى

(١) عبد القاهر الجرجانى . دلائل الإعجاز تحقيق محمود شاكر ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠ ص ٥ .

سلسلة من المشاعر والأفكار تتولد فى ذهن صاحبها ثم يودعها قوارير الألفاظ – على حد تعبير د . زكى نجيب محمود لتبقى أبد الدهر متعة لمن شاء أن يفتح هذه القوارير وبذلك يمكن أن يكون القارئ الجيد منشئاً جيداً والقارئ الرديء لا يكون إلا منشئاً رديئاً أو غير منشئ على الإطلاق ، وكذلك الفارق بين ناقد انطباعى وأخر يعتمد على الذوق ، فالناقد الذي يستجيب للقطعة الأدبية يعتمد على الذوق ، والأخر الذي لا يستجيب فإنه ناقد ذاتى يعتمد على الانطباعات .

وبذلك من يعتمد على الذوق فهو الناقد ، ومن يعتمد على غيره فسمه ما شئت عالماً ،مؤرخاً ، أو ... ، ....

العبرة فى النص الأدبي ليست فى الموضوع باعتباره شيئاً خارجياً ، وإنما العبرة بما صار إليه الموضوع أو الفكرة بعد أن سيطر عليه الشاعر ، ووسيلته فى السيطرة على موضوعه هى اللغة ، فاللغة هى موسيقاه وألحانه ، ريشته وألوانه ، فكره ومواده الخام ، فهي بمثابة العجين الذي يشكل به عمله كيف يشاء ، وهى وسيلته الخلق والتعبير ، لأنها قادرة على أن تحمل صورة نابضة حية ، وسيطرته عليها تكون بما يضيفه من ذاته وروحه ، فكل شاعر ينحت جوانب من اللغة قادرة على الإيحاء والتعبير، هذه الجوانب تختلف من شاعر لآخر حتى وإن كان الموضوع واحداً . فإن لكل شاعر طريقته فى التعبير التى تكون بمعزل عن طريقة أمثاله الآخرين ، فكثير من الشعراء تكلم فى الغزل – على سبيل المثال – على مدار التاريخ الأدبي ، إنهم عبروا باللغة وقد يعجبنا تعبيرهم ، لأنهم تمكنوا منه وسيطروا عليه ،، وعلى الناقد أن ينظر ويلتصق بالنص ، يتأمل مكوناته ، ويبحث فى أبنيته وخيوط نسيجه .

" ومن الملامح المضيئة فى مسار الحركة النقدية المعاصرة اتجاه كثير من النقاد إلى تأكيد ذاتية العمل الأدبي والنظر إليه باعتباره عملاً فنياً أبدع مؤلفه فى تشكيله باللغة ، على نحوها يبدع الرسام فى لوحاته ، باستخدام الألوان ، والموسيقى باستخدام الأصوات ، فى نفس الوقت الذي يعبر فيه عن رؤية خاصة للإنسان أو الكون والحياة ، وهكذا أصبح الناقد شديد الالتصاق بالنص ، يتأمل مكوناته ، ويبحث في أبنيته وخيوط نسيجه ، مركزاً على ما هو داخل النص غير مكترث كثيراً بما يقع خارجه من وقائع وأحداث " [١]

---

(١) د.شفيع السيد . تجارب فى نقد الشعر نشر مكتبه الشباب ط٢ سنة ١٩٩٠ ص٥ .

إن أهمـــيه اللغة إذن لا ترجع إلى " كونها قالباً جميلاً . ذلك أنه من العسير الفصل بين الفكـــرة واللغة ، فاللغة فى هذه الحالة ليست رداءً نلبسه لبعض الأفكار من أجل تحسينها ، إنما اللغـــة تـــأخذ شكلاً حياً بحيث تجد هناك ارتباطاً متيناً بين الأفكار من ناحية ، واللغة من ناحية أخرى " (١)

وبذلـــك فالأدب فن جميل يستمد أداة التعبير الخاصة به من اللغة " التى يستخدمها الناس فى محاوراتهم ، ومعاملاتهم ، وشتى أغراض حياتهم ، فإذا بدأت مناقشة اللغة الأدبية من حقيقة كونهـــا أدبـــاً اضطربت بين حقيقة كونها فناً ، وحقيقة كونها لغة ومن ثم فلابد أن تبدأ من أحد الطرفيـــن ، إمـــا من طرف الفن وإما من طرف اللغة ، وقد تناولها الفلاسفة من الطرف الأول ضـــمن بحـــثهم فـــى فلسفة الجمال ، وفلسفة الفن ، فكان تفكيرهم أكثر انسجاماً ولكنه لم يعط الأعمـــال الأدبية اهتماماً كافياً من حيث هى أثار لغوية ، وكذلك ظل بمعزل عن النقد الأدبي إلا فيما ندر، بقى إذاً أن نجرب الطريق الأخر فندرس اللغة الأدبية بادئين من حقيقة أنها لغة " (٢)

وبذلك يكون إحياء الأدب بعناصره الداخلية الأدبية البحتة ، وليس بأي شئ آخر .

ولكـــى يقترب النقد الأدبي من الروح العلمية العامة التى هى طابع العصر الحديث فلابد أن تكون له " قيمة عامة ثابتة ، وتقاليد حية معترف بها ، وأصول منظمة موضوعية ، وهو لا يمكـــن أن يكـــون لنفســـه هذه القيم ، والتقاليد والأصول بدورانه حول نفسه في فترة معينة من فـــتراته ، وإنمـــا يمكـــن أن يكونهـــا عن طريق الوعى الدائم بالقواعد والأسس والأفكار التى توصلت إليها مجهودات المهتمين بهذا الفرع على اتساع العالم ، وعلى مدى التاريخ " (٣)

وبذلـــك يمكننا أن نقول إن الجهود الجماعية تكون مثمرة إذا أحسن استغلالها وتطويرها بخلاف الجهود الفردية .

يقـــول د . الربيعى : " على أننا نظلم النهضة النقدية الحديثة عندنا إذا جردناها من كل فضـــل فـــي تقديم التراث النقدى الإنساني ، ومحاولة الاستفادة منه فقد قدم كثير من النظريات الـــنقدية ، والغـــربى منها بصفة خاصة إلى القارئ لكن هذا التقديم كان – ولا يزال – يتم في أكثـــر حالاته بطريقة فردية لا تتبع خطة مـــدروسة ولا تـــرمى إلى خدمـــة غايـــات معينة ..... وينبغى أن نسلم بأن المجهودات الفردية مهما كانت مقتدرة ومخلصة لا يمكن أن تصل في مدى معقول إلى تقديم صورة واضحة متكاملة للتراث النقدى " (٤)

---

(١) د.مصطفى ناصف . نظرية المعنى فى النقد العربى الطبقة الثانية ، دار الأندلس سنة ١٩٨١ ص ١٥٨ .
(٢) د . شكرى عياد . مدخل إلى علم الأسلوب ص ٢١.
(٣) د . محمود الربيعى .في نقد الشعر دار غريب ١٩٩٨ ص ٥ .
(٤) السابق ص ٦ ، ٧ .

وأمـــا التفسير من حيث هو جهد متتابع يضنى في كشف المعنى ، والاستدراك والتنمية فقـــد أدى الاكـــتفاء بالقلـــيل منه إلي مثل هذا التجديد الذى يتصور أن أمور التركيب ، وأمور العلامات وأمور الفهم يمكن أن يقضى فيها بأدوات متواضعة لا تستوعب جهد القدماء وحوارهم الذى لا ينقطع " [١]

ولـــذا عليـــنا أن نفـــرق بين " الأهداف والوسائل ، وأن نحدد الأهداف في ضوء حياتنا ومشكلاتها التى تتفاقم ، ليست الأهداف العليا أن نتكلم في مناهج اللغة والنقد من الناحية النظرية . الأهـــداف هى مزيد من القرب من العربية المعمرة نصاً ، وروحاً ، وخبرة حميمة ، وشعوراً بأن مساءلة نص قصير أدل على استيعاب روح المعرفة من أى شيء أخر " [٢]

---

(١) السابق ص ٤٦٥ .
(٢) السابق ٤٦٧ .